المواطنة ومرتكزات الهوية الجزائرية في كتابات محمد البشير الإبراهيمي

Citizenship and the foundations of Algerian identity in the writings of Mohamed Al-Bashir Al-Ibrahimi

الدكتور: عبد الله بن صفية

قسم اللغة والأدب العربي - جامعة برج بوعريريج (الجزائر)

abdallah.bensefia@univ-bba.dz

تاريخ الإيداع: 2023/10/01 تاريخ القبول: 2024/03/07 تاريخ النشر: 2024/03/15

ملخص:

يسعى هذا المنجز إلى استشفاف الدور الذي أدّته ركائز الهوية الوطنية في الحفاظ على اللحمة الجزائرية إبّان الاحتلال الفرنسي، وأهميتها البالغة الأثر- بحسب كتابات محمد البشير الإبراهيمي - في صناعة جيل يؤمن بقضاياه الوطنية ضمن جدلية الحق والواجب، ويدرك جيدا مقتضيات التأسيس لشروط المواطنة الحقّة، الصالحة للبناء والتّشييد بعد الاستقلال.

وقد حاول البحث تقديم مقاربته في أطر علمية منهجية، فقعّد للمصطلحات الأساسية التي يقوم عليها (المواطنة، الهوية) أوّلا، ثمّ رصد تمظهرات ركائز الهوية الجزائرية وأثرها الوطني في كتابات الإبراهيمي في مرحلة ثانية، ليقفّى بخاتمة تضمّنت أهم النتائج.

الكلمات المفتاحية: المواطنة، الهوية، الدّين، اللغة، الوطن، الإبراهيمي.

Abstract:

This achievement seeks to explore the role played by national identity key elements in preserving Algerian cohesion and unity during the French occupation and their extreme influential importance - according to Al Ibrahimi's writings - in creating a generation that believes in their national cause within the dialectic of right and duty, and is well aware of the requirements for establishing the conditions for true good citizenship appropriate for reconstruction after independence.The research dealt with the topic in systematic scientific frameworks, focusing on the basic terms on which citizenship and identity are founded, then depicting the manifestations of Algerian identity pillars and their influence on ElIbrahimi's writings and concluding with the most important results.

key words: citizenship, identity, religion, language, homeland, El Ibrahmi.

فرش:

تعدّ المواطنة مفهوما جذريا في صياغة الانتماء والانتساب بالمعنى العضويّ والوظيفي، فهي تقوم على علاقة عميقة تنشأ من تفكّر الذّات العاقلة في حدّي الزمان والمكان، وتتأسّس على قاعدة المفهوم المدني لاستغراقها في الحياة الاجتماعية والعاطفية والعقلية، لذلك فهي منتجة لكينونة تقوم على رابط تحويل الهوية من حدّها الإيمانيّ إلى حدّها العملي، المسؤول عن بناء شخصية الفرد ضمن شخصية جماعته، وهو ما يفسّر وحدة الشّعوب وانسجامها، ومن ثمة بقاءها واستمرارها.

ولأنّ المواطنة هي الحضور الواعي للذّات والجماعة معا، فهي المفهوم القاعديّ والمركزي الذي يحكم الصّيغة العمليّة والفعلية للهوية، إذْ تكون الذّات المشتركة "منوالية وجامعة" كما سمّتها الأنثروبولوجيا، حيث تحقّق الذّات المفردة صيغ تطابقها مع الشّخصية الشّعبية الوطنية وهي تستغرق سيرورتها ضمن مسار يربط المقوّمات بأوجهها العملية.

ومن النّاحية التّاريخية، تتعرّف الذّات في حركة المجايلة الزمنية وعمرانها المكانيّ على حدود وطن اكتسب اكتماله الإقليميّ والزّمني فيما دلّت عليه الأسس والثّوابت، وفيما تحقّق في المنجز والحاصل، فيصير ذلك هوية محقّقة فيما تصطلحه وتشترطه المواطنة، التي هي مشاركةٌ عضويةٌ تستغرق شعبا يمتلك مشروعية الفكر عاطفيّا وعقلانيّا، ويمتلك عوامل تحقّق رؤاه في برامج العمل.

لقد شهدت المواطنة الجزائرية عبر سيرورة تاريخية تحوّلات كثيرة في علاقة مقوّماتها بنتائجها، وهي في المجمل لم تهتزّ في حدّيها الأساسيين؛ الأرض والتّاريخ. ولعلّ من أهم المراحل التي تكون قد شهدت حالة اختبار قوية للمواطنة الجزائرية تلك الحقبة المظلمة في سياق اعتداء عنيف مارسه الاحتلال الفرنسيّ، حين استهدف شخصية الجزائري في محاولات وحشية ممنهجة من أجل تفكيك المواطنة وأبعادها عن إنتاج الوعي بالهوية، وإبطال حضورها العاطفي والعقلانيّ والعملي.

ويعدّ فعل الاحتلال مثوّرا أساسيا لما قام من فكر وعمل لدى النّخب الجزائرية في مشروعها الذي بذلته تجاه ترسيخ المواطنة، وتأكيد استمرارها ضمن جدلية الحقّ والواجب ودفع الجزائريين نحو استقلالية تامّة، ووعي بأنّ المعتدي ولحظته الظّالمة حالة طارئة وعابرة وجب معها الاستمرار في معايشة العلاقة العضوية بالوطن ضمن لحظة الحق والحقيقة، ومنع وساطة الآخر الذي حاول استبدالها بدولة وجهاز مواطنيّ مزيف وقهريّ.

وتثبيتا للمواطنة في نفوس الجزائريين بالنّظر إلى أهميتها الأنطولوجية فإنه يتوجب عقد الرّابط العضوي بين مقوّمات الهوية وبين الممارسة الواعية لتجليّاتها، وأن يتجسّد ذلك في الحبكة الفكرية والعملية في شتّى مناحي الحياة الوطنية؛ ويتأتّى ذلك بمنجزات جزائرية (ثقافية/ سياسية/ فكرية ...) جماعية تشمل كل الجوانب من مثل: العمل الإصلاحيّ الدّعوي والعمل الصّحفي، والتّعليم، والنشاط الثّقافي ... وذلك كلّه من أجل أن يتحقّق مشروع المواطنة ويقدّم في نتيجته شخصية وطنية ضمن برنامج سلوكيّ مبرّر فكريا ومسبّب إدراكيا؛ يقوم على صناعة الأفعال وإتمام المنجز اجتماعيا، وهو ما سيرسّخ مقوّمات الهوية ويبطل الأنموذج المزيّف للمواطنة البديلة الاستلابية التي حاول بها الاحتلال طمس المواطنة الصّحيحة والحقيقية لشعب عريق لا يستسلم.

لقد حفلت منجزات الكثير من المفكّرين الجزائريين منذ القدم بنهج المواطنة وأهدافها واشتركوا جميعا في أفق المشروع الوطنيّ، وتحت سقف المواطنة سعوا إلى تعزيز أركان الهوية الجزائرية، ويشهد بذلك فكر مالك بن نبي، وفكر رواد جمعية العلماء المسلمين وغيرهم؛ فعبّروا عن برنامج لها استجمعوا فيه كلّ الأسباب والأهداف، في مجالات الحياة المختلفة من الفرد إلى جماعته، وصاغوا مشروعا فكريا يسعى إلى تحقيق استقلالية الذّات الجزائرية ووعيها بذلك واستحالة أن تكون غيرها كما توهّم الاحتلال سابقا وكما يتوهّم أعداء الوطن اليوم.

إنّ أهمّ منجز في تعرّف واستدلال المواطنة الجزائرية تاريخيا، أن أُبطلت مغالطة الاندماج في زمن الاحتلال الفرنسي، وفُكّك وهم المطابقة الآخرية الذي دفع به العدو نحو محو مفهوم المواطنة المستقلة وقد كان ذلك مقدّمة كبرى في تحوّلات الوعي الجزائري، وبداية فعلية لتحقّق مواطنة كاملة اقتضت العمل الثّوري لاستعادة الوطن بكلّ أبعاده، وبناء دولة مستقلّة بكلّ مكتسباتها وتحدياتها، مع الحفاظ على كل الأسس الهووية الجزائرية على النحو الذي دعت إليه جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلى رأسها الشيخ محمد البشير الإبراهيمي.

لقد تأتت كتابات محمد البشير الإبراهيمي في سياقين تاريخيين مختلفين؛ يمثل الأول زمن الاحتلال الفرنسي، المغتصب للأوطان، والمحاول طمس مرتكزات الهوية بطريقة استعمارية مباشرة، أما السياق الثاني فزمن الاستقلال الذي أصبح فيه تحدّي بناء الدولة بعيدا عن التأطيرات الكولونيالية أولوية كبرى، والحفاظ على ركائز الهوية الجزائرية هدفا أساسيا، بالنظر إلى المتغيرات الحضارية في ظل الغزو الثقافي الذي عرفته وتعرفه الدول التي عاشت الاحتلال بشكل خاص.

ومن هنا تتأسّس لنا مشروعية السّؤال عن مفهوميّ المواطنة والهوية، وعن المرتكزات المؤسسة للوعي الوطني الصّحيح، والمواطنة المستقلة والمستحقّة لهوية راسخة، وسنتخذ لأجل ذلك كتابات محمد البشير الإبراهيمي أنموذجا للتمثيل والتحليل.

1/ في مفهوم المواطنة:

المواطنة بمفهوم سوسيولوجي "علاقة اجتماعية تقوم بين شخص ومجتمع سياسي [دولة]"[1]، وهو ما يقتضي حضور طرفين؛ تجمعهما علاقتا الانتماء والاحتواء، حيث يعلن الأول/الجزء الولاء ويسعى إلى تأدية واجباته التي يفرضها هذا الولاء، والثاني يقع على عاتقه واجب الحماية والحفاظ على حقوق الطّرف الأول وتقديمها له كاملة غير منقوصة، لأنه في الأصل مشكل من حدّ معروف من الأجزاء/الأفراد يجب تحقيق العدل بينهم وتمكينهم من حقوقهم جميعا.

والمواطنة من منظور مدنيّ هي "صفة للمواطن الذي يتمتع بالحقوق ويلتزم بالواجبات التي يفرضها عليه انتماؤه إلى وطن معين، وأهمها: واجب الخدمة العسكرية، واجب المشاركة المالية في موازنة الدّولة ..."[2]. ويجب لفت الانتباه في هذا المساق إلى أنّ الانتماء إلى وطن معين يمنح المواطن الحقّ في الجنسية، وعادة ما تكون رابطة الجنسية/الانتساب معياراً أساسياً في تحديد هوية المواطن وطبيعة علاقته بالآخرين.

وبحسب زاوية النّظر، تختلف دلالات مصطلح "المواطنة"؛ فهناك تعريفات للمواطنة ذات صبغة قانونية أو اقتصادية أو ثقافية أو اجتماعية ...، وإذا أردنا البحث في المشترك بينها جميعا وتوليفها بناءً على ما تتفق فيه من دلالات قلنا: المواطنة هي شعور بالانتماء، ووعي بالمسؤولية، وضمان للحقوق السّياسية والمدنية والقانونية التي يتمتع بها الفرد/المواطن، وهو ما يمكّنه من الحياة الحرة التشاركية التي تستدعي معها دوما ما يسمى بالواجب.

2/ في مفهوم الهوية:

الهوية في المعاجم اللّغوية من هوى يهوي، وهي "تصغير هوّة. وقيل: الهوية بئر بعيدة المهواة" أو (الحفرة البعيدة القعر) أو الأرض المطمئنة[3]. ويحيلنا المعنى المعجمي للفظ الهوية إلى "البئر" العميقة، وهو ما يعكس عمق المفهوم نفسه وغور معانيه، ولعلّ الاشتقاق اللغوي الأنسب والأقرب للدّلالة الاصطلاحية متجسّد في قول ابن منظور: الأرض المطمئنّة، لما تحمله لفظة الاطمئنان من دلالات الثّبات والأمن والسّلامة.

الهوية بموروثها ومكتسبها هي الأصل والدّيمومة والصّيرورة، هي البداية التي ينثال عندها الزمن ولا يمضي، فتواجه المختلَف والمتغيّر، داعية إلى ثبات الجوهر بالرّغم من تغيّر الأعراض وهي

من هذه الزاوية تتطابق مع الأصل الذي يقوم على استمرار وتكرّر الجوهر في مختلف الأزمنة، دون أي ادّعاء بامّحاء الفروقات الفردية المميزة لكلّ فرد من الأفراد.

تستعمل لفظة الهوية "في الأدبيات المعاصرة لأداء معنى كلمة (Identity) (Identité) التي تعبّر عن خاصية المطابقة، مطابقة الشّيء لنفسه، أو مطابقته لمثيله"[4]. أي أن يكون هو- هو فينحاد بخصائصه التي تشكّل ماهيته ليشكّل مقابلا وجوديا يصادي بمميزاته الآخر أو الغير ومن هنا، تظهر خصائص هذه الهوية بعد الوعي بها، فتُكسب صاحبها احترام الآخر، وتنتزع لصالحه اعترافا بالمختلف.

3- مرتكزات الهوية وتأسيس الوعي المواطناتي:

لقد استمدّ الفكر الوطني مفهوم الهوية من سياقات ثقافية وحضارية فرضت نفسها في عملية بلورة شخصية الجزائري؛ نحو حديثنا عن الدّين والقومية والثّقافة والعرق ... وكلّ ما يلوكه مصطلح التاريخي/التّراثي بما هو العاصم للهوية من الاندثار والآلية الدّفاعية التي تنفي سلب الحاضر بإيجاب الماضي، وهو ما يجعل الفكر الجزائريّ الإصلاحي في غالب الأحيان يقدّم لهوية جماعية، تؤسّس للمواطن الجزائري الفاعل ولفلسفة المواطنة الأصيلة، [وهو الفكر المعبَّر عنه في معظم المنجزات الثقافية والأدبية] الذي قاد سابقا إلى التّحرر من الاستعمار وبعده إلى بناء جزائر ما بعد الاستقلال، في إطار ثقافة استدعت وتستدعي تكييف الهويات الفرديّة وفق جوهر جماعي ثابت تؤسّس له مرتكزات تشكيل الهوية التشاركية التي نذكر منها:

أ/ المرتكز الدّيني:

إنّ الدّين هو أمتن مشكّل للهوية الجزائرية والأكثر فعالية في بنائها وصقلها، إذ هو فيها بمثابة الأصل الذي تنفتق عنه معظم الرّؤى، وتتشكّل استنادا إليه كثير من الطّروحات والأفكار. فالإسلام هو أبو المرجعيات الجزائرية، ومصدر القوة، ومعيار الحفاظ على الهوية وترسيخ مبادئ الوحدة، يقول الإبراهيمي في معرض حديثه عن هذه المرجعية وعن دورها "نحن قوم مسلمون جزائريون ... نعمل على المحافظة على تقاليد ديننا التي تدعو إلى كل كمال إنسانيّ ... وفي المحافظة على هذه التقاليد، المحافظة على أهم مقومات قوميتنا وأعظم أسباب سعادتنا وهنائنا، لأنّنا نعلم بأن الدّين قوة عظيمة لا يستهان بها"[5].

ولا غريب في أن يولي الإبراهيمي - ومعه علماء الجمعية - اهتماما كبيرا بالدّين، باعتباره أحد الركائز التي من شأنها أن تعيد للجزائري المقهور طاقته في فترة تراجع فيها وازعه الدّيني بفعل الاستعمار [بنوعيه: المباشر وغير المباشر] الذي حاول هدم كلّ مقومات الثّقافة الإسلامية، فحارب القرآن الكريم بشتى الوسائل وأبشع الأساليب.

أقرّ الإبراهيمي بأنّ الدّين هو السبيل الوحيد للوصول إلى مرحلة الكمال الإنسانيّ، وأنّ فعل التربية يجب أن يكون مقرونا بما هو ديني، إذ كلما تماشى التكوّن والتكوين الديني مع التربية السّليمة من البداية إلى آخر مرحلة تحقّق التّوازن الهوياتي وتأسس الوعي المواطناتي المعضود بالدين الإسلامي كأحد أهم المقومات الجزائرية، وتزايد التّناغم الاجتماعي الذي سيؤدي حتما إلى حدّ كبير من الكمال المنشود.

لقد سبّق الإبراهيمي الدين عن غيره من المرتكزات الهووية نظرا لصلاحيته الممتدة في الزمن والمتسعة في المكان، فهو للأصل والفرع، للعرف والعادة، للعبادة والمعاملة، وللتطبيق على كل الحوادث الجارية[6]، وفي سياق حديثه عنه قارنه بالمسيحية واليهودية في أكثر من موضع مبيّنا أمداء زيفهما، داعيا إلى التمسك بدين الفطرة "الإسلام" محذرا الجزائريين من أيّ محاولة للطمس أو التشكيك، وقد تمّ هذا في مرحلة احتلال الجزائر، حين حشد الفرنسي لأجل تهميش الإسلام كل القوى وسخر لها كل الإمكانات، وهو ما جعل البشير - ومن نحا نحوه - مصدر خطر من المنظور الاستعماري، لأنه غدا يستنبت في الجزائر - بعد قرن من محاولة الفرنسة- ما يوحد الصفوف، ويجمع الشمل، ويربط المحدود الجغرافي بالمدود الثقافي الإسلامي، فالإبراهيمي هو الداعي إلى التمسك بالدين دون هوادة، يقول رافعا من شأن الإسلام: "لا يضير الإسلام في حقائقه ومثله العليا إن لم ينتفع به أهله في تحسين حالهم، فما ذلك من طبيعته ولا من آثاره فيهم، وإنما ذلك نتيجة بُعدهم عن هدايته، وهو كدين سماوي محفوظ الأصول يهدي كل من استهداه، وينفع كل مستعدّ للانتفاع به، ولو أن أمّة وثنية اعتنقته فأخذتْه بقوة فأقامتْه على حقيقته -من العقائد إلى الآداب- لسادت به هذه المآت من الملايين من أهله الأقدمين الذين أضاعوا روحه ولبابه، وأخذوا برسومه والنسبة إليه، ولم يزحزحها عن السيادة أنها جديدة في الإسلام، كما لا ينفع تلك المآت من الملايين أنها عريقة في الإسلام"[7]، وقد حذّر في هذا المساق من نجاح الاحتلال في تثبيت قوانينه وترسيخ أحكامه، ضاربا المثل ببعض الشعوب الإسلامية "التي استبدلت القوانين الأوروبية بأحكام القرآن، لأنّ تلك الشعوب ما فعلت ذلك إلّا بعد أن لم يبق فيها من الإسلام إلا اسمه، ومن لم ينتفع بقديمه لم ينتفع بجديد الناس، وأحوال تلك الشعوب المستبدِلة شاهدة عليها، فهي لم تزدد بهذا الاستبدال إلّا شقاء وبلاء...."[8]، فهي وإن استعادت أوطانها جغرافيا تكون قد أضاعت ما يميّزها ويفردها إنسانيا، فتضيع اللحمة والهوية ومعهما الإخلاص للوطن ومعهم جميعا كلّ مؤطرات المواطنة الحقة التي هي بحاجة إليها في زمن البناء والتشييد بعيدا عن التنميطات الثقافية الغربية المتفشية.

ب/ المرتكز اللغوي:

اللغة هي الرّابط الذي يكوّن المجتمع، والقوّة الطبيعية التي يجتمع بها أفراده، والخصّيصة المركزية في التميز بينه وبين المجتمعات الأخرى، فاللّغة رمز للوجود، وبقدر الحفاظ عليها يتشكل مفهوم الأمة وتتجذّر أصالتها. وهي في حدّها الماهويّ حمولة ثقافية، واقتضاءً، يعدّ الحفاظ عليها حفاظا على هوية الجزائري، وليس من التّطرف في شيء حين الزّعم بأنّ أوّل ما يجب الاهتمام به لإعادة قراءة هويتنا وتحديد مسارها، وضبطها بما يحفظ لها مكانتها ويضمن استمراريتها هو اللّغة العربية، وذلك بالتركيز على إنتاجيتها وأمداء انتشارها زمنا ومكانا، لأنّها مقوّم أساسيّ تنهض عليه الأمّة العربية والإسلامية، وذلك دون أيّ دعوة لذوبان اللّهجات المحلية، والعاميات الحالية أو الناشئة التي تميّز الجزائر وتمنحها خصوصيتها وتجعلها فضاء مفتوحا للاختلاف والتنوّع.

ولما كان أساس التّواصل الثّقافيّ بين الأجيال مرهونا باللّغة وطبيعتها، فإنّ اللّغة بذلك أصبحت مركزا تاريخيا متميّزا بتوغّلاته في الزّمن ودوامه عبر التّاريخ، فاللّغة هي الرّابط وحلقة الوصل بين الآباء والأبناء، وأيّ قطيعة لغوية أو أيّ عملية تشويش على اللّغة تفقدها خصوصياتها ستمزّق حتما الخيط الذي يصل الأحفاد بالأجداد، وتفقد معها حلقات الماضي/التّاريخ، وهو ما سيُذهب سمات الهوية، وبذلك فإنّ اللغة مرجع هوياتي بالدرجة الأولى وعنصر أساسي في تقوية الشعور بالانتساب إلى فئة معينة وإلى وطن محدد، وصمام أمان يضمن الالتحام بين مكونات المجتمع.

يفتتح محمد البشير الإبراهيمي منجزه المعنون: "اللغة العربية في الجزائر عقيلة حرّة ليس لها ضرّة" قائلا: "اللغة العربية في القطر الجزائري ليست غريبة ولا دخيلة؛ بل هي في دارها، وبين حماتها وأنصارها، وهي ممتدة الجذور في الماضي، مشتدّة الأواخي مع الحاضر، طويلة الأفنان في المستقبل ..."[9]، وقد أراد الشيخ بذلك لمّ شمل الأمّة الجزائرية بمقوّم أساسي هو اللغة العربية، لغة القرآن الذي جمع شرق الوطن بغربه وشماله بجنوبه، فاللغة العربية بحسبه هي "الجامعة الأصيلة العريقة في هذا الوطن، هي التي صيّرته وطنا واحدا..."[10]، وجعلت الفرد فيه يميز أهله عن غيرهم، فينتصر إليهم، ويطالبهم بفرائض الأخوة، وبالمقابل، ينتظرون منه أن يؤدي واجباته نحوهم.

في هذا المساق، يجب الإقرار بأنّ اللغة حقّ من حقوق المواطنة، والمدافعة عنها واجب على يقع على عاتق أيّ فرد ينتسب إليها، إذ لا يمكن بأي حال من الأحوال استبدال حق من حقوق المواطنة، كالحق اللغوي المعبّر عن الهوية، التي هي جوهر الذاكرة الجماعية التي يشترك فيها أفراد المجتمع وأفراد الأمة[11]، وتأسيسا على هذا الطرح، تولّد للباحثين مصطلح "المواطنة اللغوية" الذي عرّفه المتخصصون بقولهم: "هو فضاء لغوي ممتد تأخذ فيه اللغة الرسمية النصيب الأوفى

انطلاقا من أنّ تربية المواطنة تحصل أولا باللغة الرسمية ... وتعزيز الثقافة الوطنية بنقل المفاهيم الوطنية إلى الطفل وبث الوعي بتاريخ الوطن وإنجازاته، والاهتمام بمختلف الأنشطة الثقافية، وخاصة التي تنسج في الغالب علاقة متميزة بين المواطنين بتحسيسهم أنها جزء من ذواتهم"[12]، فاللغة العربية بذلك لا تقبل المشاطرة أو القسمة لارتباطها المباشر بمستخدميها، ولذلك نجد أنّ الإبراهيمي - نتيجة لوعيه بدور اللغة العربية وعلاقتها بالمواطنة والوطن- يرفض أيّ مزاوجة بين ما هو لغوي عربي أصيل وبين ما هو دخيل لأنّه يدرك أنّ العربية ليست مجرد لغة بل هي هوية.

ج/ المرتكز الوطني:

الوطنية بما هي عاطفة تعبّر عن ولاء الإنسان للبلد الذي ينتمي إليه، وإيمان بالواجب تجاه أهله وأمته، فهي تقتضي من الفرد المخلص الوعي بكلّ مقتضياتها، فالوطنية هي واصل الذّات بالأرض والمجتمع، وهي باعث الإنسان الملتزم بقضايا الأمة من أي موقع أو موضع يشغله وظيفيّا، فيتخلّق السّياسي الناجح، والمربي الكفْء، والمصلح المقتدر، والعامل المتفاني، والثّائر الغيور على بلده ضدّ أيّ وجه من وجوه الاحتلال ...، ولذلك يشير محمد البشير الإبراهيمي إلى وجوب زرع القيم الوطنية في نفوس النشْء واستنباتها دون كدر في قلوبهم لتترسّخ هذه المرجعية فيكون للجزائر أجيال ترفع الراية الوطنية بحب يضارع المشاعر التي كانت أيام مجابهة المحتلّ الفرنسي، وفي هذا يقول: "المبدأ هو العلم والغاية هي تحرير الشّعب الجزائري والتّحرير في نظرنا قسمان: تحرير العقول والأرواح وتحرير الأبدان والأوطان والأول أصل الثاني، فإذا لم تتحرّر العقول والأرواح من الأوهام في الدّين وفي الدنيا، كان تحرير الأبدان من العبودية، والأوطان من الاحتلال متعذّرا أو متعسّرا، حتى إذا تمّ منه شيء اليوم، ضاع غدا لأنّه بناء على غير أساس، والمتوهّم ليس له أمل، فلا يُرجى منه عمل، لذلك بدأت جمعية العلماء من بداية نشأتها بتحرير العقول والأرواح، تمهيدا للتّحرير النّهائي"[13].

إنّ الحديث عن علاقة الهويّة الجزائرية بالوطن يسوقنا إلى استدعاء النّسيج التاريخيّ الذي يجمعهما، ويفرض علينا أن نغدق من هذا المعين، وأن نؤمن في الوقت نفسه بالجغرافيا المشكّلة لمفهوم الوطن، معلنين كلمة "الوطنية" جوهرا فوق كل الكلمات والمعاني، وذلك لما جبل عليه الجزائري من حبّ للأرض التي شُدّت فيها عليه تمائمه، ولما يحفظه أديمها من صنوف التّضحيات التي خطّها التّاريخ للآباء والأجداد، فالجزائر "اسم أصبح علمًا تاريخيًا وجغرافيًا على هذه القطعة الثمينة الواسعة من شمال إفريقيا، مشخصًا لها تشخيصًا واقعيًا لا ينصرف الذهن إلى غيرها عند إطلاق الاسم، ولا يتردد سامع في مسماه. وهذه القطعة ذات خصائص طبيعية وخصائص مكتسبة، اجتمعت كلها في نقطة واحدة تصدق رواد الحقّ وأنصار الحقائق، وتكذب المبطلين من أصحاب الفكر الزائغ، والرأي الضال، والهوى الأعمى. هذه النقطة التي تعرب عن نفسها وتسفّه

كلّ من يريد تغطيتها ... فالجزائر وطن عربي إسلامي منذ دخله الإسلام يصحب ترجمانه الأصيل وهو اللسان العربي، فمنذ ثلاثة عشر قرنًا انتقل هذا الوطن من صبغة إلى صبغة، من صبغة جنسية ليس معها ما يعصمها من الألوان الروحية إلى صبغة جنسية معها ما يحميها من الانحلال والتقلّب وهي العروبة المعتصمة بالإسلام، وليس لها في النظر التاريخي الصحيح إلّا هذان الطوران وهاتان الصبغتان، ومن السفه لو ادعى الرومان الذين ملكوها قرونًا أنها صارت بذلك رومانية إلا بضرب من التوسّع في التعبير والتساهل في الإطلاق الاصطلاحي، وقد لبثوا فيها قرونًا ثم خرجوا منها مدحورين لأنّها ليست رومانية بالطبع ولو كانت كذلك لما صحّ أن يقال إنهم خرجوا منها إلا إذا صحّ أنّ الإنسان يخرج من جلده، ومن أسفه السفه دعوى مجانين السياسة من الفرنسيين أنها قطعة من فرنسا"[14].

ومادام الوطن هو الأرض، والمواطن هو المنتسب القائم على شؤون أمته ضمن جماعته والمستمد لحقوقه منها، فإنّ المواطنة هي حاصل العلاقة بين الوطن والمواطن، هي الاندماج الحقيقي بين الطرفين، والانسجام بين الشعور والعمل، المؤديان اقتضاءً إلى حب الوطن وإعلان الانتماء إليه والدفاع عن حدوده وكلّ مقدساته.

خاتمة:

إنّ المواطنة أصلٌ ثابت يجب أن يراعى، وتمكينه لا يكون إلّا بالتّربية والتّكوين لتزيد قوته بالمعرفة والوعي، لأنّ الوطن مكتسب والوطنية والمواطنة استحقاق، وتجسيد هذه المفاهيم وتوطينها فعلا مدعاة للنّضال اليوميّ، مع الاتفاق الجماعي الضمني على الانتصار للوطن على حساب الذّات لا العكس، لأنّ المواطنة بتجلياتها المختلفة مشروع إضافة لدعم الوطن وتثبيت للهوية وترسيخ لها في الأنفس النّبيلة القادمة على النحو الذي سعى الإبراهيمي إلى غرسه في النفوس الجزائرية.

وفي هذا المساق، توصلنا إلى مجموعة من النتائج نوجزها فيما يلي:

- لقد حفلت الكثير من منجزات المفكّرين الجزائريين بنهج المواطنة وأهدافها، واشتركوا -بالرغم من اختلاف وجهات نظر هم- في تشكيل أفق المشروع الوطنيّ، ترسيخا للمواطنة الحقة وسعيا إلى تعزيز أركان الهوية الجزائرية.

- إنّ ما قدمته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين هي من أهمّ المنجزات الثقافية والحضارية التي ساهمت في التعرّف والاستدلال على المواطنة الجزائرية، حيث ساعدت على إبطال مغالطة الاندماج في زمن الاحتلال الفرنسي، بتفكيكها وهم التطابق مع الآخر الذي دفع به العدو من أجل محو مفهوم المواطنة الحقة والهوية المستقلة.
- سعى محمد البشير الإبراهيمي إلى التقعيد لهوية جماعية بمرتكزات قارة، هي المرسخات الفاعلة لوجود الجزائري (الدين/اللغة/الوطن)، وذلك تأسيسا لمواطن فاعل ولفلسفة للمواطنة أصيلة، وهو الفكر المعبَّر عنه في كل منجزاته، والتي ساهمت في التّحرر من الاستعمار، وبعد ذلك في بناء جزائر ما بعد الاستقلال.
- الهوية الأصيلة قابلة للتحوّر والتّغيّر الذي قد يطالها من زمن إلى آخر، وفقا لقابليتها ووفقا للمستجدّات التي تفرض نفسها على هذه الهوية، لكن ما يجب تأكيده هو أنّ هذه الهوية تبقى دوما محافظة على جوهرها الذي وجدت به ولأجله، وهو ما حاول الإبراهيمي استثارته لتمكينه والحفاظ عليه.
- عمد محمد البشير الإبراهيمي إلى تكوين جزائري معتدّ بمبادئه، حتّى وإن تعددت رؤاه واختلفت مشاربه، فجوهره سيكون حتما أميل إلى ما جُبل عليه من طبائع، ووسم به من خصوصيّات، تبرز أصوله، وتوطّن هويته.
- الهوية على إفاداتها من الآخر نتيجة الاحتكاك به، أو حتى نتيجة الصّدام معه، تبقى محافظة على ثوابتها ومرتكزاتها العميقة، الأمر الذي يحفظ للهوية الجزائرية - بحسب الإبراهيمي- وجودها واستمراريتها، لأنّ الاختلاف عن الآخر والتّمايز عنه لا يتأتّى إلا بما تتحدّد به السّمات وتترسّم به الخصوصيّات، ويتأسّس بناءً عليه وعيّ مواطناتيٌّ جزائريٌّ كامل وقارٌّ.

قائمة المصادر والمراجع

1- صالح بلعيد: المواطنة اللغوية وأشياء أخرى، دار هومة، د،ط، الجزائر، 2008.

2- صحرة دحمان: المواطنة اللغوية في الجزائر بين مفارقات السياسة اللغوية واختلالات الواقع السوسيولساني". ملتقى: المواطنة اللغوية، المجلس الأعلى للغة العربية. 26 - 27 جوان 2019، المكتبة الوطنية، الجزائر.

3- طارق محمد عبد الوهاب، سيكولوجية المشاركة السّياسية، دار غريب، القاهرة، 2000.
4- عبد العزيز بن عثمان التويجري، العالم الإسلامي في عصر العولمة، دار الشروق، القاهرة ط1، 2004.
5- عبد الوهاب الكيلالي، موسوعة السياسة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2015.
6- محمد البشير الإبراهيمي، الآثار، جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي ط1، 1997.
7- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ.

[1] - طارق محمد عبد الوهاب، سيكولوجية المشاركة السّياسية، دار غريب، القاهرة، 2000، ص: 33.
[2] - عبد الوهاب الكيلالي، موسوعة السياسة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2015، ص: 373.
[3] - ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ، ج: 08، مادة: هَوَا، ص: 793
[4] - عبد العزيز بن عثمان التويجري، العالم الإسلامي في عصر العولمة، دار الشروق، القاهرة، ط1، 2004، ص: 47.
[5] - محمد البشير الإبراهيمي، الآثار، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1997، ج3، ص: 277.
[6] - المصدر نفسه، ج1، ص 52.
[7] - المصدر نفسه، ج4، ص 69.
[8] - المصدر نفسه، ج4، ص69.
[9] - المصدر نفسه، ج3، ص206.
[10] - المصدر نفسه، ج3، ص 429.
[11] - ينظر: صحرة دحمان: المواطنة اللغوية في الجزائر بين مفارقات السياسة اللغوية واختلالات الواقع السوسيولساني". ملتقى: المواطنة اللغوية، المجلس الأعلى للغة العربية، 26 - 27 جوان 2019، المكتبة الوطنية، الجزائر، ص: 65.
[12] - صالح بلعيد: المواطنة اللغوية وأشياء أخرى ، دار هومة للنشر والتوزيع، د،ط، الجزائر، 2008،ص:19.
[13] - محمد البشير الإبراهيمي، الآثار ، ج4، ص: 344.
[14] - المصدر نفسه، ج4، ص78.